

ابطأ القطار سيره قليلاً منبهاً عن اقتراب إحدى المحطات لنزول بعض الركاب وصعود آخرين، غيرت وضعي على الكرسي بعد ان انهكت ظهري هذه الرحلة الطويلة واغلقت الكتاب الذي بين يدي وتاملت الخريطة الصغيرة المطبوعة على تذكرة القطار...

«سيتوقف القطار في محطات كثيرة... كان قد استحوذ علي قلق مسبقهم من ان تكون هذه الرحلة مملة كسابقتها من ثقب الرحلات اذ ان الرجل الذي صعد في المحطة السابِقة وجلس بجوارِي لم يلتفت اليّ مطلقاً بل انني لا اذكر اننا تبادلنا التحية كما ينبغي.. تاملته، كان لايزال مستغرقاً في النظر عبر النافذة ملصقاً جبينه بزجاجها البارد.

لا فائدة.. اذ انه، ولوقت طويل، قد فشل في ابرام اي اتفاقية للملح مع هذا الطس..

كسأت الرياح بارده وقوية والهواة الصفرء المكتظة والمبتلئة بزخات المطر اليومى

هدمان دماج

تلطف حول قدميه كماوج البحر الجنوبي البعيد... كانت برودة قارصة قد سرت في اطراف اصابع قدميه بعد ان تسربت مياه الرصيف المتجمدة من ثقب حذاءه الجلدي السميك.

انتهى الخريف الآن فكل الأشجار العملاقة التي تزين الطرقات قد نفضت عنها أوراقها الصفراء واهدتها الى ارضفة المدينة الصغيرة...

أحكم اغلاق ازرار معطفه الشتوي الذي اصبح صديقه الحنون منذ أن صعد الى هذه البلدة...

كان بعيد وضع الوشاح الملتف حول رقبعته الركيكة بحركة

اتوماتيكية كلما تقاذفت به الرياح بعيداً منخفضاً رأسه الى الأسفل تجنباً للرياح الباردة التي كانت تصفع وجهه وتكاد «تطغى عليه شمعة تنفسه» كما كان يحلو له تصور مثل هذه الأشياء ايماناً منه بان ذلك يساعده الي حد ما في اختصار مسافة المشي الطويلة...

كان القطار قد بدأ يتحرك من جديد بعد ان صعد جميع الركاب من المحطة واخذوا اماكنهم ولزمو الصمت قازماً شعوري بالضيق والممل.. فتحت الكتاب المصور الذي كتلت اطالعه وبدأت اقلب صفحاته الملونة بلبل ما لبثت ان اغلقتة من جديد وقذفت به الي الطاولة الصغبرسة المقابلة... «ملت القباة...» والتفت الى الرجل الذي بجوارِي والذي كان لا يزال غارقاً في تاملاته وسرحت نظري عبر النافذة فبدات اهتزأت القطار تثقل جفوني المرهقة وبدأت اغفو قليلاً قليلاً لكنها لم تكن سوى بضع ثوان حتى بعثر هذا الصمت صوت غليظ:

– تذاكركم ايها السادة...!!!

○○○

«لقد اهلكني هذه البلدة مشياً على الأقدام... دمدم بتأفف بينما استمرت قدماه في المسير بعجلة وبوتيرة منتظمة... لم يكن يعني، في مثل هذا الطقس، ما حوله... وجوه كثيرة تظهر ثم تختفي في عتمة هذا اليوم الضبابي... وبدأت اذناه تؤلماه من لسع الرياح الباردة فقد نسي قبعته الصوفية المفضلة «ذات الأزرار» في الغرفة لكنه رغم ذلك لم يبطئ من سيره... كان كمن قد فقد السيطرة على جسده الذي بدأ يتحرك دون إرادته... «سيكون يوماً حافلاً دون شك...» قالها في نفسه وارتعدت مفاصله المتجمدة كأنه تذكر شيئاً كان قد نسيه تماماً...

○○○

امعنت النظر في وجه صديقي الصامت وهو يعرض تذكركه لمفتش التذاكر.. كانت تلك هي المرة الأولى التي يتسنى لي فيها رؤية وجهه بوضوح... كان وجهه عريضاً محمرأ وممزوجاً بسمرة فاترة وقد ارتسم لون أخضر على جلده الحليق ذو انف بارز وعيون شابه يكسوما بريق خافت... كان اكثر ما شدي هي رقبته الضعيفة، التي لا تناسب حجم رأسه الكبير وشفتاه المشقوقتان تكادان تسيلان دماً... لاحظ نظراتي اليه فتطلع الي مبتسماً وهز رأسه بلطف... استغللت هذه الفرصة فبادرته بالحديث:

– جميل هو هذا اليوم... الشمس مشرقة منذ الصباح كغير العادة...!! إنبسم لي مؤكداً وأشاح بوجهه نحو النافذة وبدأ ينظر الى البعيد وتمتم قائلاً:

– نعم... انه جميل كغير العادة...

○○○

أخرج يده من جيب معطفه وفتح باب البناية بسرعة فاصطدم وجهه بدهء المكان الذي لم يخفف من برودة جسمه الفاقد للإحساس... ارتقى السلام إلى الدور الرابع حيث يقع المقهى... لم يستخدم المعد كعادته في ايام الشتاء «طلباً

ثقافة.. ثقافة

ثقافة.. ثقافة

ثقافة.. ثقافة

المسافر

لقليل من الدهء الناتج عن جهد الصعود، كما كان يزعم دائماً.

دلف الي داخل المقهى العالمي المزدهم كعصائه باجناس من البشر مختلفوا الأحجام والألوان والطبائع... أصوات متفرقة بلغات متعددة تعلو من اركان المقهى المكتظ «كعلبة سردين»... حتى العاملون فيه كانوا من جنسيات مختلفة.

استطاع بعد جهد ان يظهر بطاولة وكريسيين، بعد ان لمحهما بصعوبة من خلال الدخان الكثيف المتصاعد، كانت مجموعة من السياح اليابانيين الذين انتهوا من تغليب بعض الصور الفوتوغرافية التي التقطوها لمعالم المدينة وما أن همهأ بال حنا حتى تخاطفت لأيدي الكراسى لتتنظم الي طاولات اخرى جلس بسرعة على أحد الكرسيين ووضع وشاحه الصوفي على المقعد الأخر.. مد بصره بأرجاء المقهى. كان دخاناً كثيفاً يتصاعد من كل مكان وقد حجب ضوء قناديل المقهى الفضية الخافتة بينما كانت اصوات صاخبة وضحكات عالية تدوي في ارجاء المقهى من طاولة اليونانيين المجاورة.. جالت في رأسه أفكار عديدة كان يحاول ترتيبها دون جدوى فبدات تسترسل في ذاكرته كشريط سينمائي يدور امام عينيه بدون توقف، كان الدهء قد بدأ اخيراً يغزو اطرافه وبينما هو مستسلم لتخيلاته كانت عيناه تراقبان المخل اللقد تاخرت.. هل ستأتي ياترى...؟! حدث نفسه بقلق.

○○○

تأمل الكتاب الذي بين يدي فبادرته شارحاً:

– انه كتاب أتسلى به في الطريق.. للتسلية ليس أكثر- قلت ذلك ممهداً الطريق، كعادتي، لأخباره بانني طالب اكاديمي «غير عادي» إذ أنني خفت، ولا ادري لماذا، ان يعتقد بانني مجرد قارئ «سطحي» لكتب مصورة تشبه كتب الأطفال. هممت بالحديث لكنه قاطعني سائلاً:

– هل هو عن البحار...!!

– نعم... انه كتاب ممتع للغاية.. اشتريته من سوق «الأدوات المستعملة» بثمان رخيص...

بدأت اتحدث وقد غيرت من لكمة حديثي، ممارساً هوايتي المفضلة بالحديث عن ما اقراء

سرت في جسده المنهك ارتجافة محببة عندما احتسني أول جرعة من فنانج الشاي الساخن، تماماً كمثلك التي كان يشعر بها دائماً عند احتساؤه كوب الشاي البلاستيكي في نوبة حراسته الليلية، منذ زمن بعيد، وهو من مكانه المرتفع في برج المعسكر الحديدِي الصدئ يراقب دوريات الشرطة التي باشرت عملها بإزعاج السيارات القادمة من شوارع المطار الفسيح.. طارت به الذكرى بعيداً واشعل سيجارته المفضلة بنفس الطقوس التي تعود عليها منذ ثلاثين عاماً عندما اكتشفه مدير المدرسة يدخن في إحدى حماماتها المغلقة.. نفث من صدره دخاناً تصاعد ليختلط مع الدخان المتصاعد من الطاولات الجاورة.

○○○

قالها بثقة فاجئتني فدمتم على طريفة حديثي معه وتوقفت

في بداية المشوار...

ندمت على مقاطعتي له.

– لا تتقلق يا بني فهناك الكثير لتتعلمه في هذه الحياة... تجاهلت كلمة «بني» التي اغاضتني كثيراً واستمرت بالحديث.

– لقد حصلت اخيراً على اجازة...

–

– لمدة شهر واحد فقط... لقد اخبروني ان اسي مريضة.. انها تشكو القلب منذ سنوات لهذا السبب اردت ان اكون طبيباً...

–

– اذاً بعد شهر ساكون هنا مرة أخرى... فكما تعلم، لا استطع ان استغني عن هذا الطقس الذي ساقفده كثيراً...

لم تعجبه شبه النكتة التي قلتها والتي حاولت بها ان أشده على صديقي دون جدوى... كنت قد شعرت بالذنب واحسست انني قد جعلته يمل... كان قد سئد رأسه الي الخلف باسترخاء وثبت نظرة على ساعة القطار الالكترونية في الأعلى ثم مالبت ان الصق جبينه بزجاج نافذة القطار ولزم الصمت من جديد...

○○○

كم هي مرهقة ومخيفة لحظات الانتظار هذه... انها أسوأ من الانتظار في صالة طبيب الأسنان...!

حدث نفسه بتوتر وضيق كبيرين...

كان قد بكى لها البارحة بكل دموعه الرجولية ان توافق... وهاهو ينتظر ردها النهائي الذي سيرقر اشياء كثيرة... بل سيرقر مستقبل حياته كله.

«ليكن...» قالها مشجعاً نفسه... «لقد فعلت كل ما استطع...» وضغط بأصبعيه النحيلتين على عنق سيجارته ذات التنغ المخفف وتمتم منفعلًا:

– ترى ماذا ستقول...؟!

○○○

كنت خائفاً من عودة صديقي هذا الي صمته مرة أخرى فبادرته سائلاً:

– وانت... متى ستعود...؟!

انفض فحاة كمن اوقظ بعنف من نومه والتفت الي عاقداً حاجبيه لكنه، وقيل ان يتوالد في داخلي شعور الندم، مالبت ان ارخاهما بهدف وانبسم الي طمئناً واشاح بوجهه نحو النافذة مرة أخرى وبدأ ينظر الى البعيد وتمتم بكلمات لم أفهمها...

○○○

كانت عجلات القطار تداهم القضبان الحديدية بنهم شديد محدثة اصواتاً تناغمية على امتداد شريط القطار المتجه بعيداً نحو المطار... كان الظلام قد خيم فلم يعد باستطاعتنا سوى مشاهدة انعكاس وجوهنا المتعبة على زجاج النافذة... وعلى طول ماتبقى من الرحلة التي اوشكت على الانتهاء كان الصمت قد لزم صديقي وانهمكه التعب وغالبتني نعاس قلق مثل جميع من كانوا في المقصورة.

وبين الحين والآخر كنت ارى من بين جفوني المغلقتين صديقي وقد غط في نوم عميق وابتسامة كبيرة تعلو شفتيه المشقوقتين من برد الشتاء.. الشتاء الذي ولى بعيداً، بالنسبة اليه، والى الأبد...



كان القطار، عبر جسر حديدي ضخم، يخترق بحيرة صغيرة احاطتها الأشجار من جميع النادر ان تستقر في اوطانها... تسلك كل الطرق بحثاً عن الدهء والغذاء واحياناً تموت قبل ان تصل لكنها لايد ان تعود كنت اهن رأسي مؤيداً فنظر الي وارتسمت ابتسامة عميقة على شفتيه المشقوقتين واشاح بوجهه نحو النافذة مرة أخرى وبدأ ينظر نحو البعيد وتمتم قائلاً:

– وهل تدرس هنا...؟!

– نعم... انني ادرس الطب»

– سنوات طويلة و...

– نعم وشاحه ايضاً ولم ازل

– انها مثلنا تماماً...

○○○

كانت عجلات القطار تداهم القضبان الحديدية بنهم شديد محدثة اصواتاً تناغمية على امتداد شريط القطار المتجه بعيداً نحو المطار... كان الظلام قد خيم فلم يعد باستطاعتنا سوى مشاهدة انعكاس وجوهنا المتعبة على زجاج النافذة... وعلى طول ماتبقى من الرحلة التي اوشكت على الانتهاء كان الصمت قد لزم صديقي وانهمكه التعب وغالبتني نعاس قلق مثل جميع من كانوا في المقصورة.

وبين الحين والآخر كنت ارى من بين جفوني المغلقتين صديقي وقد غط في نوم عميق وابتسامة كبيرة تعلو شفتيه المشقوقتين من برد الشتاء.. الشتاء الذي ولى بعيداً، بالنسبة اليه، والى الأبد...

